سيدة البدايات.. الجمعية الأردنية للتأهيل النفسي

ليث عودة [1]

أبدأ حديثي بما قيل في المأثور: «إنَّ الذين يستحقون النصب التذكارية لا يحتاجون لها»، حقًّا إنَّ السيدة هيفاء البشير لا تحتاج لتكريمٍ على مسيرتها بقدر ما نحتاج نحن لهذا التكريم؛ إننا نتعلَّم من خبرات حياتها في هذا التكريم، وهي حتى في تكريمها تقدِّم لنا من فيض عطائها الذي لا ينضب.

وبصفتي مديرًا وممثلًا للجمعية الأردنية للتأهيل النفسي– مركز الصفصاف، وهي أحد الصروح التي كانت السيدة هيفاء البشير حجر الأساس في تكوِّنها ولا تزال ترأس هيئتها الإدارية، فقد تأسست الجمعية عام 1989 بهدف تقديم خدمات التأهيل النفسي، وقد كان تأسيس مثل هذه الجمعية في ذلك الوقت يُعدُّ خروجًا على المألوف؛ ففي الوقت الذي كان يُنظر للمريض النفسي على أنَّه عالةٌ على المجتمع، كانت ثلة المؤسسين تقف في وجه المَوْجَة لتقول إنَّ هؤلاء الأشخاص هم أبناؤنا وإخواننا، وهم جزءٌ لا يتجزأ من تكوين الوطن، ولابدَّ أن تكون لهم يدٌ وذراعٌ في تشكيل مستقبله وبناء إنجازاته، وهذا وحده يكفي ليكون مؤشرًا على بُعد النظر والرؤية بعيدة المدى لدى هذه السيدة، بالإضافة إلى البُعد الإنساني الذي لا يخفى على أحد.

(1) مدير الجمعية الأردنية للتأهيل النفسي.

رئاسة الجمعية

تشكلت الجمعية ولم تترأس السيدة أم مازن هذه الجمعية في بداياتها، وبعد أعوام على التأسيس وعندما شارفت على الانهيار، استنجد الرجال بالسيدة كخَيار أخير قبل إعلان انهيار الجمعية، وقد قبلت السيدة هيفاء التحدي، وبدأت الإنجازات بالظهور إنجازًا تلو الآخر، وكان التطور بطيئًا والعمل مليئًا بالتحدي والتعب والعناء وربما اليأس، لكنَّه خطوةٌ على طريق السعي اللامتناهي للوصول لأهداف الجمعية، فلقد آمنتْ دائمًا بمقولة: «إذا كانت الأحلام كبيرة فالحقائق لا تهم». في العام 1995 تكلل الجهد بالحصول على أرضٍ حرجية مساحتها 12 دونمًا ضمن أراضي ناعور في قرية تركي، وبدأ الحشد لجمع الأموال الكافية لبناء مركز للجمعية يليق بمرتاديها ويلبّي لهم أبسط حقوقهم الإنسانية: العيش الكريم. وفعلًا، في العام 2000 تم البدء ببناء المركز ليظهر اليوم بحُلَّته التي هو عليها اليوم، حلة جعلت منه مقصدًا لمن يعانون اضطرابات نفسيّة مزمنة، لمن أسماهم المجتمع «المرضى» وربما وصمهم بألقاب أخرى أساءت لهم ولذويهم، لكنَّ الجمعية الأردنية للتأهيل النفسي بقيادة السيدة هيفاء البشير آثرت تسميتهم «المستفيدين»، وهذا كان له أثرٌ طيّب في نفوسهم ونفوس أهاليهم، كما أنه أسهم بشكلٍ أو بآخر في توجيه الدفة نحو اعتبار هذه الفئة جزءًا لا يتجزأ من المجتمع، وبذلك أسهم في علاج ما يسمى «وصمة العار» المرتبطة بالمرض النفسي. وقد تشرفت الجمعية بأن قامت جلالة الملكة رانيا العبدالله حفظها الله بافتتاح مركز الجمعية في العام 2003.

مركز الصفصاف للتأهيل

تقع الجمعية في منطقة تركي ضمن لواء ناعور في العاصمة عمان، وتبعد عن مركز مدينة عمان حوالي 25 كم. والمنطقة التي تقع فيها الجمعية تجمع بين الطابع الريفي من حيث الطبيعة والأحراج، والحداثة من حيث طبيعة البناء والمرافق. ولأنَّ الهدف كان من البداية

توفير الخدمة الشمولية، فهي توفر خدمات: التأهيل النفسي والاجتماعي من قبل اختصاصيين مدربين ويخضعون لإشراف دائم من قبل خبراء، والتأهيل المهني الذي يتضمَّن التدريب ضمن مشاغل الخياطة والنجارة والنسيج والتريكو والخيزران والفسيفساء والموسيقى والكمبيوتر والفندقة، وخدمات الطعام والشراب والنظافة والخدمات المساندة الأخرى.

وينقسم المستفيدون من خدمات المركز إلى قسمين رئيسيين هما، القسم الداخلي: وهم المستفيدون المقيمون داخل المركز، وهؤلاء تُقدَّم لهم خدمات الرعاية المسائية والطعام والشراب والمبيت بمواصفات عالية وجودة تضاهي المعايير الوطنية والدولية. والقسم الخارجي: وهم المستفيدون الخارجيّون الذين يتلقّون خدمات التأهيل نهارًا ويعودون لمنازلهم، وتوفّر الجمعية لهم خدمات المواصلات من منازلهم وإليها.

ولتحقيق أهداف المركز، كان لا بدَّ من أن يحتوي مجموعةً من المواصفات، منها أنّه يقع على قطعة أرض مساحتها 12 دونمًا، وتحتوي الأرض على أشجار حرجية وأشجار الزيتون بالإضافة لبرج الحَمَام وقنّ الدواجن، كما تُزرع في الأرض أعشابٌ طبيةٌ متنوعة، ومساحة البناء 1800 متر مربع، لذلك يتكون من طابقين، الأول: مجموعة من المشاغل المهنية والحرفية هي الخياطة والنسيج، الخيزران، الخدمات الفندقية، النجارة، الفسيفساء، الكمبيوتر، الموسيقى، التريكو، كما يضم قاعات جلوس ومنامات للمستفيدين المقيمين في المركز.

أمّا الطابق الثاني، فيضمُّ الجناح الإداري والمكاتب والمطبخ وقاعات الجلوس والاجتماعات. وبالنسبة للشرفة، فهي قاعة خارجية مجهّزة بكافة المرافق وتتسع لطاولات وكراسٍ تكفي لأكثر من 400 شخص، ومرافق الشرفة هي الحمامات والمغاسل والفرن الخارجي، وتشكل إطلالة الشرفة إضافةً فريدة من نوعها.

ولأنَّ الثبات في القمة أكثر صعوبة من الوصول إليها، فقد واجهت الجمعية الكثير من الصعوبات والتحديات على مدار السنوات، أذكر منها الضائقة المالية التي مرّت بها في عهد دولة رئيس الوزراء عبدالله النسور، وقد ألحَّت بطلب الدعم للجمعية، وأخيرًا أثمرت المساعي بالموافقة على إعطاء منحة سنوية حكومية للجمعية، فقد استضافها دولته وقدم دعمًا ماليًّا للجمعية.

هذه العظمة في الإنجاز جعلت شخصًا مثلي يتطلع إلى ذلك العقل الذي سبق كثيرًا من الناس في التفكير والتوقّع والمبادرة والمدافعة للوصول إلى الهدف، ودائما كنت أسأل نفسي عن السبب، وذات مرة قالت السيدة هيفاء البشير لي هذه الجملة، وقد دار حديثٌ بيننا حول أحد المشاريع التي تنوي الجمعية تنفيذها حال الحصول على دعم: «اكتب أنّ الشيء العلمي يفرض نفسه»، ودائمًا ما كان يدهشني أن أرى مكتبتها العامرة بشتى أنواع الكتب، في خضمّ انشغالاتها كأم مربية وكسيّدة مجتمع فاعلة في العمل التطوعي والإنساني وغيرها، لم تنس أن تترك للعلم والثقافة والقراءة جزءًا من يومها المزدحم حتى هذا اليوم، وفي كل زيارة أجد أنها قد بدأت بقراءة كتاب جديد، كما لا يفوتها أن تقرأ الصحف اليومية لتضيف لعلمها وخبرتها وثقافتها المزيد، وهذا هو سرُّ العلم والتعلم المستمر الذي لا يتوقف ما دام النفس والنبض.

أخيرًا وليس آخرًا أشعر بالفخر أنني كنت من ذلك الجيل الذي عاصر هذه القامة، كما أفتخر بأنني عملت معها عن قرب خلال السنوات الماضية، وقد كنت محظوظًا بالتعلُّم منها ونقل علمها وخبرتها إلى الميدان، ولا يسعني في هذا المقام سوى أن أسأل الله العلي القدير أن يمدَّ في عمرها وأن يتمم عليها الصحة والعافية حتى تكمل المسيرة على أفضل صورة تتمناها.